نشأة الزراعة وأثرها فى تاريخ الحضارة

طلب إلى أحد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الحضارة منذ نشأتها الأولى أن يكتب مؤلفا فى أهم المخترعات والمكتشفات التى كان لها أثر عميق بالغ فى مجرى الحياة والحضارة البشرية ، فبدأ مسودة كتابه — الذى أعرف أنه لم يخرج إلى النور ولم يطبع بعد — بأن سجل أن أهم المخترعات وأخطرها شأنا قد تم منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . وأضاف أن ما نشاهده ونتمتع بنتائجه من الاختراعات الحديثة فى عهدنا الذى نعيش فيه لا يمكن أن تقاس فى خطرها إلى اكتشاف استخدام النار مثلا ، وقد اهتدى إليه الانسان منذ عهد طويل قد يبلغ عشرات قليلة من آلاف السنين ، ولولاه ما استطاع الانسان أن يسخر كثيراً من موارد الطبيعة والحياة ؛ كما لا يمكن أن تقاس إلى استئناس الحيوان أو استنبات النبات ، وقد اهتدى إليهما الانسان منذ سبعة آلاف من السنين أو تزيد ، ولولاها ما استطاع الانساس أن يسخر مملكة الحيوان والنبات . ثم إنها لا يمكن أن تقاس إلى اكتشاف استخدام المعادن كالنحاس والبرونز والحديد ، وقد اهتدى الانسان إليها جميعاً بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد ، ولولاهما ما سخر الانسان المعدن النافع فى صنع آلاته وأدواته . فاكتشاف عمل النار واستخدامها ، واستئناس الحيوان ، واستنبات النبات ، واستخدام المعدن النافع قد قلبت حياة الانسان وغيرت مجراها تغييراً يكاد يكون تاماً ؛ على حين أن كثيراً من اكتشافاتنا الحديثة كاستخدام البخار أو صنع الصلب بدلا من الحديد ، أو استخدام الألمنيوم أو الكشف عن الكهربا أو غير ذلك ، إنما هى كلها تكييف وتشكيل لبعض ما كان معروفاً ، أو إضافة إلى تراث عريق ؛

أو هى بناء فوق أساس قديم ؛ بحيث إننا نستطيع أن نقول إنها لا تمثل « جديداً » بالمعنى الدقيق للكلمة (١) .

والذى يعنينا فى هذا المثال إنما هو أن نعرض لاكتشاف واحد من تلك الاكتشافات القديمة ذات الأثر العميق البالغ فى حياة الانسان . وهو اكتشاف الزراعة أو استنبات النبات . وسنحاول فى هذا المقال أن نستطلع أموراً شتيتة قد يفيد بيانها والجمع بينها فى إبراز قيمة هذا الكشف الخطير ، الذى يزيد من أهميته فى حياة الناس أن الانسان بطبيعته حيوان نباتى فى غذائه ؛ فهو بحكم تكوينه الفسيولوجى وتكوين أسنانه بصفة خاصة إنما خلق ليعيش على الحبوب والجذور والفاكهة وثمار الشجر . فليست أسنانه من النوع « الناهش » المدبب ، كما هى أسنان المفترس من الحيوان وليست هى من النوع « الماضغ » الأملس ، كما هى أسنان المجتر من الحيوان . الذى يعيش على الحشائش ؛ وإنما هى أسنان وسط تصلح لأن تجرش الحب أكثر مما تصلح لأن تنهش اللحم النيئ أو تمضغ ألياف الحشائش الخضراء . ومهما قيل من أن الانسان قد انقلب بحكم عاداته المكتسبة إلى حيوان مفترس يقتات على لحوم غيره من الحيوان ، فقد بقى النبات بحبه وجذوره وثماره أساس الغذاء البشرى بصفة عامة . ولعل هذا أن يكون السر فى أن اكتشاف استنبات النبات بدلا من مجرد جمعه والتقاط حباته وثماره من الطبيعة يعتبر الاكتشاف الأول من حيث الأهمية فى حياة الانسان .

ولا يعرف على وجه الدقة متى ولا كيف بدأ الانسان يستنبت النبات . ولكن المعروف أنه قد درج فى أول الأمر على الجمع والالتقاط ؛ واكتفى بذلك ردحا طويلا جدا من الزمان ، ليس لنا أن نقدر طوله الآن ، ويكفينا منه أن نشير إلى أن حياة الانسان فى هذا الطور الطويل كانت حياة « هدامة » ؛ فهو كان يعيش على حساب استغلال الطبيعة استغلالا سلبيا من جهة ، والاعتماد على ما تجود به دون محاولة الاكثار من ثمراتها أو استدرار خيراتها

---

(١) قد لاينطبق هذا على اكتشاف تحطيم الذرة واستخدام طاقتها . وليس ذلك لأن استخدام الطاقة أمر جديد فى حد ذاته ، ولكن لأن تحطيم الذرة سيفتح آفاقا جديدة أمام الانسان فى استخدام مقادير هائلة من قوى الطبيعة ، لا تكاد تشملها حدود .

من جهة أخرى . أما بعد أن اهتدى إلى الاستنبات فقد صار الانسان عوناً للطبيعة بعد أن كان حرباً عليها ؛ واختلفت حياة الانسان عن حياة الحيوان الذى يسعى فى الأرض ويأكل الثمرات . والمعروف — أو الذى تواضع عليه العلماء الآن — أن تحول الانسان هذا التحول الخطير إنما حدث فى أوائل العهد الذى يعرف باسم العهد الحجرى الحديث ، وكان ذلك فى أوقات مختلفة فى مختلف الأماكن ؛ فالتحول لم يحدث فى وقت واحد فى كل مكان . ومع ذلك فمن المرجح أن يكون ذلك قد حدث فى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد ، بحسب ما تدل عليه القرائن الأثرية فى مصر وبلدان الشرق القريب . ثم انتشر فن الزراعة والاستنبات إلى بلدان أخرى فى حوض البحر المتوسط وفى أواسط آسيا وشرقها خلال القرون أو الآلاف اللاحقة . ومن الجائز أن يكون استنبات بعض النباتات كالأرز قد نشأ فى جنوب آسيا الشرقى مستقلا عن استنبات القمح والشعير فى الشرق القريب وعند مجمع آسيا الغربية بأفريقية الشرقية ، كما أن من المعروف أيضاً أن استنبات الذرة الغليظة قد بدأ مستقلا فى أمريكا الشمالية .

أما كيف بدأ الاستنبات فى حد ذاته ، وكيف اهتدى الانسان إليه فالآراء كثيرة متضاربة ، وهى أقرب إلى الفروض والنظريات منها إلى الوقائع المحققة . ومن الباحثين من يرى أن الانسان قد اهتدى إلى الزراعة أول الأمر بعد أن آمن بالبعث واليوم الآخر ، فقدم القرابين للموتى ، ودفن مع الأجساد فى المقابر كميات من الحبوب تسعف الميت يوم النشور بزاد يقيه الجوع ساعة يهب من رقاده الطويل ، فجاء ماء المطر وتسرب إلى المقابر فأنبت الحب ، وخرج النبات بين حفر المقابر ؛ فتعلم الانسان من ذلك كيف يكفر الحب فى الأرض ليخرج زرعاً جديداً يمده بمحصول مضاعف من الحبات والثمرات . ومن الباحثين من يرى فى هذه النظرية تفسيراً متكلفاً ؛ ويفضل عليها أن يفترض أن يكون الانسان قد جمع الحب فى موسم نضجه من حقول الطبيعة ، حيث تنمو النباتات بطبيعتها نمواً بريا أو وحشيا . حتى إذا ما جمع الحب كان أكثر مما يستطيع أن يقتات به فى وقت قصير ؛ فاحتفظ به فى كوخه حيث كانت الحبات معرضة لأن تتناثر حول الكوخ وعلى الأرض بين حين وحين ؛ حتى إذا ما ابتلت الأرض فى وقت مناسب للانبات خرج النبات

الأخضر من الحبات ، وشاهد الانسان نموه حتى أدرك أن النبت إنما يخرج من الحب ، ثم يستوى زرعاً طيباً تتوجه السنابل والحبات التى يضاعف الله بها الرزق للناس . وبذلك لم يكن عسيراً على الانسان أن يهتدى إلى أن يبذر الحب على الأرض أول الأمر ، ثم يكفره فى ثراها بعد ذلك ؛ فكانت نشأة الزراعة بمعناها المعروف .

وهناك فروض ونظريات أخرى يدور معظمها حول تعليل نشأة الزراعه ، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد آراء . وقد يكون أولى بنا ألا نفترض أن يكون فن الزراعة قد نشأ على أنه « اختراع » أو « اكتشاف » تم دفعة واحدة . فقد رأينا فى مقال سابق (١) أن من الجائز أن تكون زراعة المحاصيل الشتوية — لا سيما الشعير — قد نشأت فى بلد كمصر نشأة طبيعية تدريجية ؛ فالنيل يعلو ويغمر جوانبه فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ؛ ثم ينحسر عنها فى وقت ملائم جدا لانبات الشعير والقمح وما إليهما من محاصيل الشتاء . ومن اليسير أن تذرو الرياح لدى انحسار الماء بعض البذور من حافة الوادى إلى تربته التى غزاها النيل بغرينه ومائه وأعدها أطيب إعداد للانبات والانماء ، فيخرج النبت الجديد ويتغذى من ثرى الأرض الطيب حتى تقبل أمطار الشتاء فتغذيه حتى نهاية موسم الانبات والنمو وحلول فصل الحصاد فى أواخر الربيع . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ، أو أن تكمل عملها وتحسنه على الأقل ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع عنها أذى الحيوان والطير ، حتى يتم الحصاد . ومن يدرى ! فقد تكون قد مرت على هذا النمو مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى تعلم الزراعة الصحيحة ، وغرس الحب وتولى استنباته ورعايته آخر الأمر ؛ وبذلك صار زارعا بالمعنى الكامل الصحيح .

وإذا نحن قبلنا هذا التصوير الأخير لنشأة الزراعة فى بلد كمصر ، فقد

---

(١) « الكاتب المصرى » عدد ٢٧ (ديسمبر ١٩٤٧) .

لا تبقى بنا حاجة إلى أن نتخيل ماحدث على نحو ما تصوره لنا النظريات السابقة . وقد يكون مقبولا أن نتصور أن تكون الزراعة قد نشأت فى مواطن معينة من العالم ، لأن البيئة الطبيعية كانت أكثر صلاحية فى تلك المواطن ، ومع ذلك فان من المهم لنا أن نفرق منذ الآن بين نوعين من الزراعة كان لكل منهما أثره الخاص فى حياة الانسان وتطور مدنيته وحضارته . فأما النوع الأول فهو فطرى بسيط لم يزد فيه الانسان على أن ينقر حفرة صغيرة فى الأرض بوساطة فأس حجرية أو عصا خاصة ، ثم يضع الحب ويكفره فى التراب ، فيأتى المطر ويسقيه حتى يتم نموه ويستوى على سوقه ، فيحصده الزارعون . ومثل هذا النوع من الزراعة لم يرتفع كثيراً بأهله ؛ فهو لم يعلم أصحابه التضامن والتعاون فى أداء مهنتهم ؛ وهو قد مكن لكل زارع أن يزرع بمفرده ولنفسه ، أو أن يكتفى فى حرفته بأن يستعين بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقيت الجماعات التى اشتغلت بهذه الزراعة الفطرية مفككة ، لا يربط بين أفرادها تضامن أو تكافل اجتماعى أو إدارى ، من ذلك النوع الذى يميز الحياة المتحضرة ، والتى تتداخل فيها المصالح وتشترك الغايات وتتشابك الوسائل . فضلا عن أن هذا النوع الفطرى من الزراعة لا يحتم على صاحبه أن يرتبط ببقعة معينة من الأرض ، وإنما هو يحدوه إلى أن يفضل الانتقال فى كل عام أو عامين إلى بقعة جديدة لم ينهك خصبها الانماء . وبذلك لا يعتاد الزارع حياة الاستقرار التى هى ضرورية لنشأة الحياة الثابتة والمدنية المستقرة .

أما النوع الآخر من الزراعة فهو الذى يعرف بالزراعة الراقية ، حيث يعتمد الزارع على الأدوات والآلات كالمحراث وغيره ، مما يستلزم قيام حرف إضافية غير الزراعة ، أو أدوات الرى ووسائله التى تستلزم قيام فن الهندسة وشق الترع والقنوات بدلا من الاعتماد على المطر فى رى النبات . وهذا النوع الراقى من الزراعة يستلزم جهداً مضاعفاً من صاحبه ، ويستلزم أن تتعاون فنون وحرف مختلفة تتشعب معها الحياة فى المجتمع ويتنوع النشاط وتتكاثر المصالح ويصعب فيه على الزارع أن يعمل فى الحياة بمفرده أو أن يكتفى بالاستعانة بأفراد أسرته الصغيرة . بل إن هذا النوع الراقى من الزراعة هو دون الزراعة الفطرية أساس المدنية الزراعية بمعناها التاريخى المعروف . وهو الذى سمح

فى بلد كمصر أن تصبح الزراعة أساساً صالحاً لحياة مستقرة مثمرة ، هى التى قامت عليها تلك المدنية العريقة التى عاصرت التاريخ وارتفعت بالمجتمع المصرى درجات رفيعة من الحياة والمدنية والحضاره .

ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نخلص من هذه الدراسة العامة لنشأة الزراعة وألوانها المختلفة إلى تقصى بعض نتائجها الظاهرة فى حياة المجتمع البشرى وحضارته ، تلك النتائج التى لم تقتصر على مصر ومثيلاتها من البلدان ذات المدنية الزراعية المستقره القديمة ، وإنما هى قد شملت أغلب الانسانية فى بقاع كثيرة من الأرض . ولعلنا أن نجد فى تعدادها وتحديد دلالات كل منها بعض ما ينفع فى الكشف عن قيمة « الزراعة » كقوم أساسى من مقومات الحياة الانسانية والحضارة البشرية بوجه عام .

وأول ما ترتب على الزراعة بصفة عامة أنها علمت الانسان أن يكون بناء فى الطبيعة بعد أن كان هداماً فى عهد الجمع والالتقاط ، مثلها فى ذلك مثل استئناس الحيوان ورعيه ؛ فقد علما الانسان أن يعاون الطبيعة على أن تتوالد وتتكاثر بدلا من أن يقتنص حيوانها اقتناصاً كان لابد أن ينتهى إلى الفناء والانقراض . وقد ترتب على تحول الانسان نحو الحياة الانتاجية أن أصبح عوناً للطبيعة ، فضاعفت الطبيعة أجره ، وأخرج الله من كل حبة غرسها سنبلة أو سنابل ، فى كل سنبلة حبات كثيرة فيها من الرزق ما ييسر أسباب الحياة . وقد أدى ذلك إلى توافر الخيرات ، فتكاثر الناس وتضاعف السكان ، لا سيما فى الجهات التى تتيسر فيها الزراعة أو تجود . وكان هذا عاملا خطيراً فى عمران سطح الأرض ، وفى إمكان انتشار الانسان إلى جهات مختلفة ما كان له أن يعمرها لولا معرفته للزراعة والاستنبات . فاذا ما ذكرنا أن امتداد سلطان الانسان على وجه البسيطة ، بل إن قيام المدنية فى حد ذاته يستلزم توافر حد أدنى من السكان ، سهل علينا أن نتصور أنه لولا ظهور الزراعة ، وتوافر الأقوات والأرزاق نتيجة لذلك ، ما قامت لبنى الانسان دولة فى هذه الأرض التى تجود بالخير على العاملين .

ومع ذلك فلم يقتصر خير الزراعة على زيادة الرزق وتوافره ؛ وإنما هى كانت وسيلة « مضمونة » من وسائل العيش ، أو هى فى القليل كانت أكثر ضماناً من جمع الحبوب والتقاط الثمرات من النباتات والأشجار البرية والوحشية .

فالانسان فى عهود الجمع والالتقاط ، أو حتى فى عهد الصيد والقنص ، إنما كان يعيش من يوم ليوم ، أو من فترة قصيرة إلى فترة قصيرة على كل حال. فحياته كانت كلها خوف ، والجوع كان يتهدده ويتعقبه فى المكان والزمان . ولا بد لنا من أن نسلم بأن الخائف لا يمكن أن تقوم على يديه مدنية ؛ وأن الذى يتهدده الجوع لا يمكن أن يكون له فكر مثمر أو روح مستقر . بل إن الحياة الفكرية ذاتها لا يمكن أن تنشأ أو تنمو إلا إذا توافرت للانسان الطمأنينة والأمان ، بل ذلك الشئ الذى نسميه « وقت الفراغ » . . . لا سيما هذا الأخير ، فهو الذى يتحرك فيه الفكر ويسبح فى آفاقه ، وهو الذى ينزع فيه الروح إلى مجال بعيد عن حياة الجسد ، بل هو الذى تعمل فيه العقول حرة طليقة من حاجات البطون . . . وتلك كلها مقومات أولية فى الحياة المتحضرة التى يجمع فيها الانسان إلى حياة المادة حياة الفكر والروح والعقل . ولعلنا أن نتبين ذلك واضحاً جليا حين نقارن بين حياة الزارعين القدماء وحضارتهم من جهة ، وحياة من سبقهم من جماعات الالتقاط والجمع والصيد من جهة أخرى .

وأثر آخر من آثار نشأة الزراعة ، لا سيما النوع الراقى منها ، أن الحياة المستقرة قد استلزمت قيام عدد آخر من الحرف والصناعات بل والعلوم المكملة للزراعة . من ذلك عمل الآلات الزراعية كالفأس والمحراث وآلات الحصد وغيرها ، أو أدوات الرى ، أو أوانى الفخار وغيرها حيث تحفظ حبوب المحصول من موسم لموسم ، أو غير ذلك من الصناعات الزراعية البسيطة التى استلزمها بالضرورة ظهور المحصول دفعة واحدة وفى موسم واحد ، وحاجة السكان إلى اختزانه والاحتفاظ به صالحاً للاستهلاك خلال بقية العام . وكل ذلك وغيره من نشأة علوم الرياضة الفلكية لحساب مواسم الزراعة والحصاد وعمل التقاويم الزراعية وتحديد الفصول قد أدى بالتدريج إلى ظهور فئات مختلفة من ذوى الحرف فى المجتمع ، وإلى زيادة ارتباط تلك الفئات بعضها ببعض ، واشتباك المصالح بين أصحاب الحرف والصناعات والعلوم والفنون من الزارعين وغيرهم. فضلا عن أن توافر المحاصيل والتوسع فى الزراعة قد انتهيا آخر الأمر إلى أن أصبح الزارع ينتج من المحاصيل ، أو من بعضها على الأقل ، أكثر مما يستطيع أن يستهلك . فنشأت فكرة التبادل ، وتداخلت الزراعة فى التجارة كما تداخلت

فى الصناعة من قبل . وذلك ولاشك أساس هام من الأسس التى قامت عليها الحياة والمدنية فى مختلف العصور .

ومع ازدياد التعقيد فى حياة الزارعين ومن خالطهم من ذوى الحرف الأخرى ازدادت الحاجة إلى النظام فى الحكم والادارة ، ونزع الزارعون أنفسهم ، وبحكم حياتهم المستقرة ، إلى الدعه والاستكانة ، وهما ضرورتان من ضرورات الحكم الثابت المستقر . فامتازت حياة الجماعات الزراعية القديمة — والحديثة إلى حدما — بألوان ثابتة ، أو قليلة التغير من الحكم والادارة ، استمر بعضها قائما على الزمن آلافا عدة من السنين ، نستطيع أن نلمح آثارا منها فى حياة القرية المصرية الحالية أو القرية الصينية على سبيل المثال . ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن أقدم « الحكومات » انما هى تلك التى نشأت بين جماعات الزراع .

ولكن الاستقرار فى الأرض واستتباب الأمن والحكومة قد يسرا من جانبهما نشأة نظام الملكية ، وتملك الزارع لقطعة معينة من الأرض يحفظها له القانون ، ثم تمسك المجموعة الكبرى من الزارعين باقليم معين يحفظ عليهم تعاونهم الشامل وحكومتهم الموحدة الدائمة . وبذلك كله نشأت فكرة « الوطن » وكان الزارعون أكثر تعصبا لها واستمساكا بها من غيرهم من ذوى الحرف الأخرى ، بما فى ذلك الرعاة فى مراعيهم . فالراعى إذ يتمسك بمرعى إبله إنما يحتفظ فى الوقت ذاته بالقبيلة كوحدة للمجتمع . وإذا انتقلت القبيلة من جهة إلى أخرى أو هى هاجرت ، فانها تحتفظ بوحدتها ولا تأنف أن تستبدل بمرعاها مرعى آخر ؛ بل هى فى الحقيقة دائبة العمل ولو بطريقة غير محسوسة ، لأن تتوسع وتتنقل ؛ لأن القاعدة فى حياتها هى الحركة لا الثبات . أما الزارعون فان الوحدة « الاقليمية » عندهم تقابل الوحدة « القبلية » عند الرعاة ، والوطن الثابت عند الزارعين معقد الأمل . وكلما استمرت جهود جماعة من الزراع فى بقعة معينة من الأرض ازداد تعلقهم بها ، وتضاءلت رغبتهم فى النزوح عنها ؛ لا سيما إذا كانت الزراعة من النوع الراقى الذى يحتاج إلى الرى وشق الترع والقنوات وإقامة المشروعات والقرى الزراعية الثابتة . لذلك كله كانت فكرة الوطن والوطنية أقرب إلى حياة الزارعين منها إلى حياة غيرهم من الرعاة ، أو بالطبع من الصيادين أو الذين يحترفون الجمع

والالتقاط . فاذا نحن ذكرنا أن الحضارة الراسخة والمدنية المستقرة قد ارتبطتا منذ البداءة بفكرة الوطن والمكان الذى تتركز فيه الجهود ويثمر العمل الدائب ، حق لنا أن نشيد بفضل الزراعة فى نشأة المدنية والحضارة بوجه عام .

ولقد كانت اراضى الزراع فى كل عصر مطمعاً لغيرهم من العناصر المجاورة لا سيما الرعاة ؛ فكانت غزوات كثيرة متلاحقة يذكرها التاريخ فى الشرق الأدنى وشرق آسيا وغيرها من مواطن المدنية والاستقرار . وكان ذلك فى حد ذاته مبعثاً لألوان جديدة من احتكاك فئات البشر بعضهم ببعض ، ذلك الاحتكاك الذى لم يخل من أن تسيل فيه دماء ، أو أن يحل بسببه خراب ودمار ، ولكنه كان فى جملته خيراً للانسانية ؛ فقد انتهى فى أغلب الأحيان بأن استوعب الزراع غزاتهم من الرعاة ، وعلموهم كيف يكونون بناة جديدين لألوان جديدة من المدنية ، ما كان الرعاة ليحققوا شيئاً منها لو أنهم بقوا فى مراعيهم . فكأن الزراع وإن رغبوا عن الرحلة والانتقال ونشر مدنياتهم فى أقاصى الأرض ، فقد جادوا بها وعلموها غيرهم من الغزاة والرعاة جيلا بعد جيل .

ومع ذلك فان فضل الزراعه والزارعين على الانسانية أعمق من ذلك . فالمجتمع الزراعى كان أبرز مجتمع ظهر فيه نظام الأسرة كأساس لحياة الجماعة . وهو الأساس الذى مهما تشكلت ألوان المدنية والثقافة والحضارة العامة فانه لا يزال باقياً ، وسيبقى فى صورة من الصور مادام هناك إنسان يعمر الأرض . بل إن الزراعة كانت بحكم نشأتها أول حرفة تعاون فيها أفراد المجتمع تعاوناً صادقا شاملا فى عمل واحد . ففى حرفة الصيد مثلا كان العمل الحقيقى يتولاه الشبان والرجال الأقوياء القادرون على مطاردة الصيد ومغالبته ، أما النساء والشيوخ والأطفال فلا يعملون كثيراً ، ولا يعاونون بقدر ما يعالون . وفى حرفة الرعى كان الرجل يقوم بالعمل الأساسى المنتج دون المرأة . وفى حرفة الجمع والالتقاط كان النساء والأطفال يعملون أكثر مما يعمل الرجال . ولكن حرفة الزراعة فتحت باب العمل أمام الجميع لا سيما النساء . وهن فريق غالب من بنى الانسان (!) . بل هن فئة غالبة كانت معطلة النشاط — إلى حد بعيد أو قريب — فى حياة الصيادين بل فى حياة بعض الرعاة القدماء .

حتى إذا ما جاءت الزراعة فتحت آفاقا جديدة أمامهن ، إلى حد أن بعض الباحثين يرون أن المرأة هى التى اهتدت إلى اكتشاف الزراعة واستنبات النبات قبل الرجل ، وكانت هى العامل الأول فى الزراعة فى أطوارها القديمة ، كما بقيت عاملا هاما فى الزراعة حتى وقتنا هذا

من هذه الخلاصة لما ترتب على نشأة الزراعة من آثار فى حياة البشر وحضارتهم . نستطيع أن ندرك قيمة هذه الحرفة القديمة ، ونستطيع أن نقيس ما كان من فضل لتلك الجماعات العريقة التى اهتدت إلى استنبات النبات والزراعة واشتغلت بهما منذ أقدم العصور ؛ ومنها مصر وكثير من أمم الشرق القديم فى غرب آسيا وشرقها على السواء . . . تلك الجماعات التى سبقت إلى الانسانية بفضل كبير لا نزال نعيش فى أكنافه ونجنى ثماره وخيراته حتى الآن . . . ولعلنا أن نزيد هذا الفضل جلاء ووضوحاً إذ نتصور أن الانسانية الحديثة قد ارتدت عن معرفتها بالزراعة والاستنبات ؛ فساقها مثل هذا الارتداد إلى مجاهل الماضى السحيق ، وقطع على جماعاتها المتكاثرة سبيل الحياة ! ولئن كان ما سبقت به أممنا وجماعاتنا القديمة إلى الانسانية قد حدا بصاحبنا العالم الذى ورد ذكره فى صدر هذا المقال إلى أن يعترف بالفضل لذويه ، فيقول ن أخطر المكتشفات فى تاريخ البشر قد تم أمره — على أيدى أناس من الشرق — منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . . . فما أحرى هذا الفضل ، إن نحن درسناه وكشفنا عن آثارة الظاهرة والخفية ، أن يكون مصدر اعتزاز و إيحاء لنا ، نحن أبناء أولئك الزارعين القدماء ، الذين فتح الله عن طريقهم باب الخير للانسانية ، وبارك فى أعمالهم ، فاتخذ من صورة جهادهم الطيب ومن ثمرة جهدهم المبارك فى الزراعة والاستنبات مثله الكريم حين تحدث عن أقرب الناس إليه ممن ينفقون أموالهم فى سبيله فقال: « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . »

سليمان حزين